**الأستاذة المشرفة على المقياس : بن عيسى خيرة**

**مقياس الفرق الكلامية : ( مح + تط )**

**السّنة الدّراسيّة 2020- 2021**

**المستوى : ماستر 1/ تخصص فلسفة عربية إسلامية .**

**المحاضرة السادسة : خير الدين التونسي**

**ترجمة مختصرة لحياة خير الدين التونسي :**

ولد سنة 1820بالجنوب الشرقي من جبال القوقاز وهي منطقة حدودية بين أوربا وآسيا ، توفي أبوه في إحدى الوقائع العثمانية ضد روسا وهو لا يزال صغيرا ، فوقع عندها أسيرا وسيق به إلى اسطنبول ليباع في سوق الرق ، اشتراه نقيب الأشراف تحسين بك بن محمد الذي عهد إلى تعليمه مع ابنه ، حيث تعلم العلوم الإسلامية والغة الفرنسية .

توفي بعد سبعة عشر سنة ذلك الابن الذي كان بمثابة أخ له ، فقرر سيد خير الدين بيعه ، فاشتراه رجل نقله معه إلى تونس ، وكان ذلك سنة 1837، وعندما وصل أهداه إلى أحد أعيان تونس وهو أحمد باي الأول ، الذي اتخذه خادما له وألحقه بمدرسة بارود الحربية ثم بمدرسة المماليك ، وكانت هذه مرحلة مهمة في حياة خير الدين التونسي حيث اطلع على العلوم الدينية ، وأتقن اللغة التركية والفارسية والعربية ،و استفاد كذلك من مكتبة القصر التي كانت تحتوي نفائس الكتب في جميع المجالات .

تقلد مناصبا مهمة في الدولة وكان مقربا من أحمد باشا بدأ بالمناصب العسكرية ثم السياسية فعمل مستشارا للدولة في العلاقات الخارجية مع أوربا ، ثم تقلد منصب وزير البحر ، كانت له خلال ذلك انجازات كبرى في إصلاح الدولة ، ثم رئيسا للمجلس الأكبر ، لكنه في النهاية قدم استقالته سنة 1862.

تولى مرة ثانية مناصب أخرى في الدولة وقام بإصلاحات كبيرة لكنه لم يبقى للمؤامرات التي حيكت ضده فقدم استقالته للمرة الثانية عام 1877، واعتزل نهائيا العمل السياسي مع بقاء اتصاله واهتمامه بأمور الدولة التونسية ...

**مبادئ الحركة الإصلاحية عند خير الدين التونسي :**

يمكن أن نلم بعناصر الإصلاح عند خير الدين التونسي من خلال كتابه " أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك " ، هذا الأخير الذي يحاول من خلاله أن يقف على التخلف الذي تعيشه تونس في جميع المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية وحتى الفكرية والثقافية ، ومن ثمة يحاول معالجة ذلك الوضع ، وكأنه يشخص المرض ويصف له الدواء .

يستهل الكتاب بالكلام عن الأسباب التي دفعت العرب إلى التخلف والانحطاط ، ثم يشرع في عرض طبيعة التنظيمات السياسية والاقتصادية في أوربا ، ومستوى التمدن والتحضر الذي حققته ، وذلك من خلال تلخيصه لما وصل إليه الغرب من اكتشافات علمية واختراعات ، ثم يتكلم عن طبيعة أنظمة الحكم وعن المجالس وطرائق التسيير والتنظيم داخل الدولة ، لينتقل إلى الحديث عن القوة العسكرية العثمانية ، و عن مملكة فرنسا تاريخها وطيعة السلطة السياسية والأنظمة العسكرية فيها .

يتناول كذلك النظام الاقتصادي والزراعة ، ثم يعرج للكلام عن دول أوربية أخرى مستعرضا أنظمتها كانجلترا والنمسا وروسيا وايطاليا والسويد والنرويج وغيرها وصولا إلى الكلام عن إفريقيا .

ولعل الغرض من الكلام عن أوربا وفحص سياستها واقتصادها ...هو دعوة للعمل على منوالها للخروج من الانحطاط ، فكانت أول خطوة لذلك في نظر خير الدين التونسي هي "معرفة أحوال الناس "، أو كما يقول :" ...إلا بمعرفة أحوال من ليس حزبنا لا سيما من حف بنا وحلَ بقربنا" ، وهذه المعرفة التي يقترحها خير الدين التونسي تقتضي انتقاء ما يناسبنا وما يتوافق مع مبادئنا الدينية وهويتنا .

انطلاقا من هذا التصور السابق (معرفة أحوال الناس) الذي يقترحه خير الدين التونسي للإصلاح ، يحدد لنا مجموعة من العناصر والمبادئ التي من شأنها أن تساعد الأمة على النهوض وهي التي سنلخصها فيما يلي :

**1/ ضرورة الاقتباس من الغرب :**

يرى خير الدين التونسي أن سبب تخلف الأمم ناتج إعراضها عن الانفتاح على الآخر والاستفادة من علومه وطرائق عيشه وأنظمة الحكم فيه ، إذ من الواجب على الأمة المتخلفة والمتأخرة في التحضر البحث عن الوسائل والطرق التي ساهمت في تقدم الغرب ، ومن ثمة السير على منواله كتطوير أساليب العيش في الزراعة والصناعة والتجارة ، وفتح المجال للعلوم والمعارف والانفتاح بها ، والاطلاع على طبيعة أنظمة الحكم وخصائصها والاستفادة منها.

وأن ذلك كله لا يعني تقليدا للغرب في جميع مكونات حضارته ، بل يحدد خير الدين التونسي مستوى الأخذ والمواكبة في أنها يجب أن تكون في حدود ما تسمح به مقومات الأمة وهويتها ، وفي هذا يقول :" ...والغرض من ذكر الوسائل التي أوصلت الممالك الأوروباوية إلى ما هي عليه من المتعة والسلطة الدنيوية ، أن نتخير منها ما يكون بحالنا لائقا ، ولنصوص شريعتنا مساعدا وموافقا ، عسى أن نسترجع منه ما أخذ من بين أيدينا ، ونخرج باستعماله في ورطات التفريط الموجود فينا..." من كتاب : أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك لخير الدين التونسي ، تقديم محمد الحداد ،دار الكتاب المصري القاهرة،1012.

وعليه حدد خير الدين التونسي في كتابه "أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك" ما يجب اقتباسه من الغرب ويمكن تلخيص ذلك فيما يلي :

* الإحاطة بعلوم الغرب ومعارفه والبحث عن الوسائل الموصلة للحضارة .
* إصلاح التعليم والمنظومة التربوية ، وذلك بالاطلاع على النموذج الغربي خاصة فرنسا والإقتداء بها ، وقد عمل خير الدين التونسي كثيرا على هذه المسألة ، فأصدر مرسوما بإصلاح التعليم في تونس وكان ذلك سنة 1875.
* التعرف على النظم الاقتصادية عند الغرب ووسائلها ، وعلى الأنظمة السياسية وما تقوم علية من طبيعة السلطة والقانون والمجالس والوزارات وغيرها .
* إعطاء أهمية كبيرة للمكتبات وما تحتويه من كنوز معرفية وتشجيع النشاطات العلمية التي تساهم في رفع المستوى الفكري والثقافي للمجتمع ، وعلية أنشأ خير الدين التونسي ثاني مكتبة بجامع الزيتونة على النمط الأوربي .

**2 / تجاوز النظرة المتعصبة للغرب** :

إن التعصب للغير والانغلاق على الذات حسب خير الدين التونيسي هو عامل من عوامل التخلف والانحطاط ، وهو فكرة تؤدي إلى الجمود والتحجر وتمنع التحضر والتمدن ، لذلك يجب القضاء على فكرة أن ما يأتي من "الغرب حرام "، وهي الفكرة التي أشاعها الكثير بدعوى الحفاظ على مقومات الأمة ومبادئها الإسلامية . إلا أنه لا يمكن الأخذ بهذا الموقف ، لأن هؤلاء الذين يدعون إلى التعصب قد أعرضوا حتى عن بعض عناصر الحضارة الأوروبية التي هي في الأصل موافقة لشريعتنا .

**3/إصلاح نظام الحكم** :

إن نجاح الإصلاح يفترض بالضرورة الإصلاح السياسي ؛ أي إصلاح نظام الحكم ، وهذا الأخير يجب أن يقوم على حسب خير الدين التونسي على ثلاث دعائم أساسية : السير على أصول الشريعة الإسلامية ومبادئها – القضاء على النظام الاستبدادي – العمل بمقتضى القانون والالتزام به ، وذلك على النحو التالي :

1. **السير على أصول الشريعة الإسلامية ومبادئها :**

إن الإسلام يؤسس لنظام دولة متكامل ، ويشمل مبادئ الحكم العادل ويحدد المفاهيم المرتبطة بالسلطة والقانون والرعية وغيرها ، لذلك لابد من الانطلاق في إصلاح نظام الحكم من الشريعة الإسلامية ، والدليل على ذلك السلطة السياسية في زمن الرسول محمد عليه الصلاة والسلام ، وزمن الصحابة رضوان الله عليهم .

ومن ثمة يتم ربط السلطة بالدين . إذ يعتبر مبدأ **الشورى** حسب خير الدين التونسي من العناصر الأساسية التي تقوم عليها الدولة ، وهو أنجع وسيلة لإصلاح نظام الحكم نستمد من الشريعة الإسلامية ، فالدول الأوروبية خلصت إلى نجاعته وكان من المبادئ الأساسية في السلطة .

هذا ويتكلم كذلك خير الدين التونسي عن مبدأ **العدل** الذي يؤسس له من منطلق النص الشرعي والسنة فيستدل بقوله تعالى : }  **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ**  {، وقول الرسول عليه الصلاة والسلام : " العدل عز الدين وبه صلاح السلطان وقوة الخاص والعام ، وبه أمن الرعية وغيره " .

إن العدل أساس تقدم الأمم وتطورها وبه يحصل الاستقرار في الدولة بإعطاء لكل ذي حق حقه ، فجميع القوانين يجب أن تبنى على مبدأ العدل ، وهذا ما عمل عليه خير الدين التونسي إذ شكل سنة 1875 لجنة تهتم بضبط القوانين التي تسن في الدولة والتي تختص بتحقيق العدالة والمصلحة العامة .

يعتبر **الحق** كذلك من العناصر الأساسية التي نستنبطها من الشريعة الإسلامية وهو لا يقوم بذاته ، بل يستدعي الهمم التي بها يحق الحق ويبطل الباطل ، فالرجال هم الذين يقيمون هذا المبدأ ، لذلك على الأمة أن يكون فيها أولئك الرجال فيدعون إلى الحق وينصرونه ويظهرونه للناس .

يتكلم خير الدين كذلك عن **الحرية** ، هذه الأخيرة التي تعتبر من المبادئ التي دعا إليها الإسلام ، لذلك يجب احترام الحريات داخل الدولة لتحقيق نظام عادل ، ومن ذلك احترام الحرية الفردية وحرية المعتقد ، يقول : " ...التي من أصولها المحفوظة إخراج العبد عن داعية هواه ، وحماية حقوق العباد ، سواء كانوا من أهل الإسلام أو من غيرهم واعتبار المصالح المناسبة للوقت والحال وتقديم درء المفاسد على جلب المصالح وارتكاب أخف الضررين اللازم أحدهما ، إلى غير ذلك " أنظر أقوم المسالك

أما **المساواة** فهي التي تقوم على مبدأ إلغاء أفضلية أحد على الآخر في سن القوانين وإعطاء الحقوق وفرض الواجبات ، فالناس جميعا سواسية ، وقد عملت أوربا على عل تطبيق هذا المبدأ ، فجميع المواطنين سواسية أمام قوانين الدولة ، إذ تعتبر المساواة من عناصر التمدن والتحضر .

**ب القضاء على النظام الإستبدادي :**

يدعو خير الدين التونسي إلى ضرورة القضاء على الأنظمة الاستبدادية التي ينفرد فيها الملوك بالأمر والنهي ، فتكون بذلك سلطتهم مطلقة ، وفي هذا يُهْضم حق الرعية ويَغيب القانون وتُهجر الحكمة ويُغْرق في الشهوات والغرائز ، هذا النظام لا مستقبل له ، و الأمثلة على ذلك كثيرة كبعض الدول الإسلامية وحتى الأوربية ، أو كما يقول :"...وبما جُبلت عليه النفوس البشرية كان إطلاق أيدي الملوك مجلبة للظلم على اختلاف أنواعه ، كما هو واقع اليوم في بعض ممالك الإسلام ، ووقع بممالك أوربا في تلك القرون عند استبداد ملوكها بالتصرف المطلق في عبيد الله " أنظر أقوم المسالك.

**ج - الحكم المقيد بالقانون :**

نجاح الحكم مرتبط بمدى الالتزام بالقوانين ومدى التقيد بها ، وعلى منوال الدول الأوربية يضع خير الدين التونسي مجموعة من الضوابط التي إذا توفرت كانت قاعدة الحكم سليمة ، ، منها أنه يجب أن يكون قائما على **مبدأ الخلافة** ، ويستدل في ذلك بنموذج الخلافة الإسلامية ومبادئها من شورى وعدل ومن وقائعها ، لذلك هو يعود إلى الخلافة الإسلامية ويتكلم عن خصال الرئيس وصفاته ويستند في ذلك إلى رأي ابن خلدون في المقدمة (للتوسع أنظر كتاب أقوم المسالك صفحة 20وما يليها).

يقترح كذلك وعلى منوال النموذج الغربي **المجالس** التي تقوم بدور النصح للملوك والتوجيه والنهي عن المنكر وإصلاح ما فسد من أمر الأمة ، يسميهم خير الدين التونسي **بأهل الحل والعقد** ، فهو يقول بعد شرح رأيه :" ...وجب علينا أن نجزم بأن مشاركة أهل الحل والعقد للملوك في كليات السياسة ، مع جعل المسؤولية في إدارة المملكة على الوزراء المباشرين لها بمقتضى قوانين مضبوطة لها ، مراعى فيها حال المملكة ، أجلب لخيرها وأحفظ له" أنظر أقوم المسالك .

يسترسل خير الدين التونسي أكثر في هذه المسألة مبينا طبيعة الخلافة الإسلامية وخصال الخلفاء ، وثقة هؤلاء في الرعية وطلبهم النصح والمشورة منهم ، ويستدل بذلك بنص للغزالي يذكره عن الخليفة عمر بن الخطاب ، يقول :" ...وقال حجة الإسلام الغزالي : الخلفاء وملوك الإسلام يحبون الرد عليهم ولو كانوا على المنابر ، فقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو يخطب : أيها الناس من رأى منكم فيّ اعوجاجا فليقومه ، فقام له رجل وقال : والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا .فقال : الحمد لله الذي جعل في هذه الأمة من يقوم اعوجاج عمر بسيفه ، ولاشك أن مثل هذا الإمام العادل الشديد في حماية الدين وحقوق الخلافة لو لم ير مساغا من الشريعة لذلك الكلام مع ما فيه من الشدة ما حمد الله عليه ، بل كان الواجب رده وزجر قائله " أنظر أقوم المسالك .

إن الدولة تحتاج بالضرورة إلى **مناصب** يجب إحداثها لأهميتها في تنظيم أمور الحكم وشؤون الرعية ، ومن ثمة يوكل كل موظف في الدولة بمهمة يجب عليه آداؤها على أحسن وجه والالتزام بالقوانين الموضوعة في الدول ، ولا تكون تلك المناصب عشوائية بل يجب اختيار الرجل المناسب لكل مهمة ، بأن تكون له من المؤهلات التي تسمح له وتعينه على ذلك .

يرى خير الدين التونسي كذلك ضرورة **العلماء في الدولة** ، وملازمتهم للحاكم ، فبهم يستقيم الحكم ،ويستدل في ذلك بنصوص منها ما كان لأرسطو الذي يقول :" العالم بستان سياجه الدولة ، والدولة سلطان تحيا به السنة والسنة سياسة يسوسها الملك ، والملك نظام يعضده الجند ، و الجند أعوان يكنفهم المال ، والمال رزق تجمعه الرعية ، والرعية عبيد يكنفهم العدل ، والعدل مألوف وبه قوام العالم " أنظر أقوم المسالك .

يضيف خير الدين التونسي شارحا لهذا القول : " فقد تضمنت هذه الكلمات الحكيمة الإشارة - يجعل العالم بستانا – إلى تشبيه الرعية بشجر ثمرته المال وحارسه الجند ، وأن استقامته بها حياة السنة السياسية التي هي مادة حياة بستان العالم " . " أنظر أقوم المسالك